الشعر المعجب في أدبيّ المذنب ..

د . أبو أوس إبراهيم الشمسان
(عضو هيئة التدريس بجامعة الملك سعود)

كانت ليلة الثامن عشر من ذي القعدة عام ١٤٣٣هـ موعداً لأمسيّة شعريّة أحياها فرع نادي القصيم الأدبي في محافظة المذنب ، لم أكن أتوقع أن يكون الإقبال على سماع الشاعرين كذلك الإقبال ، فقد كنت أظن أن بضاعة الشعر قد كسدت ، وأنّ الناس باتوا أميل إلى ألوان من متع البصر والسمع لا تحصى ، وهي تأتيهم بأيسر سبل في بيوتهم وعلى طرف التمام بأيديهم ، وكنت أظنهم إنما يقبلون إن هم أقبلوا على الشعر النبطيّ ، ولكني رأيت تلك الليلة أنه جلس الشاعران على المسرح بينهما مدير الأمسية الأستاذ / سليمان بن علي العبودي في مواجهة جمهور متلهف إلى السماع ، يصغي فيحسن الإصغاء ، ويقابل ما يسمعه بالتصفيق والثناء ، وراح الشاعران يتعاقبان إلقاء منتخبات من أشعارهما الرائعة ، فلا ترُوعك من أحدهما قصيدة حتى تفتنك من الآخر قصيدة ، أما الشاعران فهما أبو ذكرى عبد الرحمن النويصر وأبو حسان عبد العزيز السراء . والشاعر أبو ذكرى من أبناء محافظة المذنب ، وأما الشاعر أبو حسان فمن محافظة حريملاء ، وأبو ذكرى عبد الرحمن هو ابن أستاذي الأستاذ القدير والرجل النبيل الأستاذ / المربّي سليمان النويصر الذي كان مدير أول مدرسة بدأتُ فيها أولى خطوات تعليمي (المدرسة الخالدية) ، وكان من حظّي تلك الليلة أن تشرّفت بالسلام عليه والجلوس إلى جانبه. أدرك المستمعون، وهم يصغون للشاعرين باستمتاع ، ما اتصف به كلا الشاعرين من صفات تميز أحدهما عن الآخر؛ فقد كان السراء يقتنص مواقف من الحياة نادرة فيصور ما فيها ويشخصه تشخيصًا باهرًا، وكان النويصر يشيع في سامعيه المشاعر فتلامس شغاف القلوب بما اخضلت به أشعاره من فيض العواطف الإنسانية.

وإن لم يكن بالإمكان أن نورد تلك القصائد الرائعات ؛ لأنها تسمع من الشاعرين أجمل من أن تقرأ ، فإنا نجتزئ ببعض تلك البيوت . من قصائد أبي حسان السراء قصيدة قالها على لسان فتى أصمّ أبكم ، لغته التي يعبر بها حركات الإشارة من كفّيه ، يقول :

أنا حُرٌ.. وَتَكْفِيْنِي الإشَارَةْ وبَيْنَ أنَامِـلِي قَدْحُ الشَّرَارَةْ

يستثمر الشاعر الحكمة الشعبية (الحر تكفيه الإشارة) . فالحر الأبيّ المجرب يدرك من واقع الحال ما يغنيه عن المقال، وهذا الصبي يفهم بالإشارة فيكتفي، وهو بالإشارة بأنامله يقدح من المعاني ما تقدحه الأنامل بالزند من شرارة .

يَخُونُ القَولُ وَالتَّعْبِيرُ قَومًا وَفِي كَفَّيَّ تِبْـيَانُ العِبَـارَةْ

وبهذه الموازنة يحيل الشاعر العجز قوة والبكم فصاحة ، وهو بهذا يؤكد مفهوم اللغة أنها نشاط ذهني في المقام الأول وإنما تأتي العبارات

مترجمة لتلك الأفكار الكامنة ، وإشارة الأبكم تترجم تلك الأفكار أيضًا؛ فالمنبع واحد والوسائل مختلفة ، وإنما التفاضل بالقدرة على التعبير عن تلك الأفكار.

حتى الصمم يحيله الشاعر بلفتة ذكية إلى ميزة حين يقول:

وَفِي أُذْنَيَّ دُونَ الفُحْشِ وَقْرٌ وَتُسْدَلُ دُوْنَ مُنْكَرِهِ السّتَارَةْ

بل يجعل الشاعر للقلب أذنًا هي خير من الأذن السامعة:

إذا أُذْنُ الفُؤَادِ صَفَتْ وطَابَتْ ومَا فَقْدُ المَسَامِعِ بالخَسَارَةْ

وبعد أبيات طويلة يختم الشاعر بما يُعلي من شأن لغة الإشارة من حيث هي نافذة إلى أفكار هؤلاء البكم الفصحاء:

سَيُوْصَدُ دُوْنَ فَهْمِ القَوْلِ بَابٌ إذا لَمْ تَفْهَمُوا (لُغَةَ الإشَارَةْ)!!

والخوف أن يفقد المرء حريته إن لم يفهم الإشارة منذ كان الحر تكفيه الإشارة.

وفي قصيدة (أستغفر الله) يصور لنا الشاعر أبو حسان موقف طائف حول الكعبة بجسده، وأما قلبه فطائف بكعاب، يتنازعه الدين والدنيا، ولكن الصياد صار فريسة، وتبدأ المفارقة بالظباء التي لا يحل صيدها في الحرم ولكنها تصيد الليث فيه :

ظباء مكة لا يقتلن في الحرم ما بالهنّ قتلن الليث معتمرا؟!!

وهو موقف عمريّ خبرناه من ابن أبي ربيعة، ومن بصري الوضيحي الشمري الذي زاحمته من رامت تقبيل الحجر فلم يملك إلا تقبيل خدها، يقول شاعرنا السراء:

فللخضاب بكفٍّ أومأت فتنٌ فكيف تزحمني كي تلثم الحجرا؟!

هذا بعض من شعر السراء وأعذب الشعر أكذبه، ولكن لشاعرنا قول آخر:

ما أكذب الشعر، إن ما هز سامعه تراه شوقاً كعود البان مضطرباً

ولم تكن ليلة الثامن عشر من ذي القعدة عام ١٤٣٣هـ أول معرفتي بالشاعر الرقيق عبدالرحمن النويصر فقد تفضل بإهدائي ديوانه (لوعة الظنون)، وهو عنوان قصيدة في الديوان، ومعظم قصائد الشاعر فيض مشاعر يجيد نسج بنائها ويتفنن في تخير كلماتها الموحيات التي تلامس شغاف القلوب، ويحسب سامعه أنه يتحدث بلسانه ويحكي خواطره ويفصح عن مكنون نفسه، فإذا السامع يفرح في لحظات الفرح وإذا هو يأسى في لحظات الأسى. نجد في الديوان قصائد معبرات عن محبة الوالد ابنته (ذكرى)، وتأتي في مطلع هذه القصائد قصيدة (لوعة أب) التي يظهر اسم ذكرى في ثالث بيت، وهو من أجمل بيوت القصيدة لما اكتنز به من التفات إلى المأثور التراثي الرائع، يقول:

أبتْ ذكرى سوى قلبي مُثارًا لنقع الشوق كسباً للنزال

فإنا نستحضر، بهذا، الخيول الأصيلة العاديات التي أقسم بها الله تعالى، قال عز وجل: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾ (العاديات ٤)، ثم قول بشار بن برد:

كَأَنَّ مُثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤوسِنَا وَأَسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُه

وكان مطلع القصيدة دعوة للتعالي مطرزًا بألوان من البديع، فالجناس في ثلاثة مواضع منه؛ إذ بدأ بفعل أمر يدعوها به للتعالي، ثم ختم باسم التعالي، فجمع بين الاسم المبيّن للحركة الفاعلة ثم الاسم المبيّن وضع الاستقرار والاستمرار بالاتصاف، ونجد الطباق في (تعالَي) من العلو والمنعة حيث يقابلها (تعالي) دعوة للقدوم والمطاوعة، ونجد الجناس بين (تعالي) الفعل و(تعالِ/تعالي) الاسم، يقول الشاعر:

تعالَي يا منى عمري تعالي وتيهي في حياتي في تعالِ

وكان من أكثر ما أثار إعجاب الناس بالشاعر الرقيق المتواضع أبي ذكرى احتفاؤه بضيفه الشاعر أبي حسان وتقديمه له على نفسه وتصريحه بأنه يستحق أمسيّة خاصة لا ينازعه فيها أحد، ومن قصائد الشاعر عبدالرحمن النويصر التي شدّت الجمهور قصيدته في ابنته ذكرى حين عاد من سفره فلم يجدها، لأنه تعود أن يقبلها قبيل نومه، فكان أن جمع بعض أشيائها أمامه فكانت قصيدة سكب فيها عبراته، ومنها قوله:

تتصاغر الدنيا إذا ما أقبلت كلُّ القريض بما سواها أضيَعُ

واستعماله (أضيع) هنا من الاستعمالات النادرة في العربية حين يأتي أفعل بمعنى فاعل، كما في مطلع لاميّة العرب للشنفرى:

أقيموا بني أمّي صدور مطيكم فإني إلى قوم سواكم لأميل

فقوله (أميل) أي: مائل. ومن طرائف أبياته ما نجد فيه القلب في المعنى، فإن يكن المألوف أن يلوك المتحدث الحروف مجازًا فإن الشاعر قلب المعنى، فجعل الحروف أنفسَها تلوكه تعبيرًا عن فقده التحكم والسيطرة بسبب بُعد حبيبته ذكرى عنه، وهذا جعل الحروف تتشكل بما يرضي النفس ويؤنس الخاطر، يقول:

وإذا تولت فالحروف تلوكني في كل سطر للصغيرة موضع

ويعبّر عن ذروة شغفه بها حين لا يرى غيرها فيجعلها حجابًا دون الخلق:

يتبدّد الأحباب حين لقائها فكأنها دون الخليقة برقع

ومن قصائدة التي أطربت السامعين (سحائب الحسن)، ومنها قوله:

صنعَت جنون العقل وهي بعيدة ببراعة الأشكال والأسماء

وليس غريبًا أن تفعل ذلك وهي كما قال:

فيها من الأرض البسيطة سهلها ومن السماء تطاول الجوزاء

وأعجب من ذلك قوله:

العين ماءٌ والرموش كدوحةٍ واللحظ دائي والشفاه دوائي

ومن القصائد الشجية ما عبر به عن قريبته (نوال) التي توفيت فعُصر قلبه، وأشجى بشجوه السامعين، قال:

مضتْ في غير ما نَرجو نوالُ وما بالدمع للراجي نوالُ

وإذ بالقلب ثاوٍ في هموم كما صيدٍ تخرّمُه النبالُ

مضت خير البدور إلى زوال فما يجدي رثاءٌ أو سؤالُ

ثم يدعو الشاعر إلى الاعتبار من مصائب الدنيا ومفاجآتها حين يقول:

فلا وعظٌ سينفع كالمنايا ولا خُطَبٌ تُبلّغُ أو مقالُ

ويختم قصيدته ختامًا مؤثرًا يدعو فيه للمرحومة:

فنوّرْ يا إلهي القبر أنسًا فمنك إليك يا ربّ السؤالُ

أعود إلى القول إن الشاعرين أبي حسان وأبي ذكرى أبدعا في الأمسيّة التي نظمها النادي الأدبي في القصيم فرع المذنب، وإن سماعهما وسماع ردودهما على المداخلات والأسئلة شيء ليس إلى وصفه من سبيل، فالشكر لهما والشكر للمشرف على إدارة الفرع الأستاذ الأديب عبد الرحمن الغنايم، وللجمهور الذي جعل الأمسيّة مشهداً جميلاً.